﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ [الحجر: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَعجُّبُ إبراهيمَ عليه السلام، وتأكيدُ الملائكة، أنْ لا عَجبَ من أمْرِ اللهِ

لمّا ظهرت على إبراهيمَ عليه السلام علاماتُ التّعجُّبِ المُفضي إلى احتمالِ الشَّكِّ في صحَّة الخبرِ أجابوه مؤكِّدين لِما بشّروه به تحقيقًا وصدقًا، كما أنَّ كلامَه اقتضى ردًّا لِما دلَّ عليه تعجُّبُه واستبْعادُه أن يكونَ له ولدٌ فجاءت هذه الآيةُ، لبيانِ أنَّ أمرَ اللهِ لا يُتعجَّبُ منه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾: أصْلُ القَنْطِ: المَنْعُ، يُقال: قَنَطَ ماءَهُ عنّا، أيْ: مَنَعَهُ، ومنه سُمِّيَ اليَأْسُ قُنوطاً؛ لأنَّ اليائِسَ مَنَعَ نَفْسَهُ من رَحْمَةِ اللهِ تعالى. ويأتي القنوطُ بمعنى قَطْعِ الأمَلِ، والقُنوطُ: اليَأْسُ مِنَ الشَّيْءِ، يُقال: قَنِطَ مِنَ الخَيْرِ، يَقْنَطُ، ويَقْنِطُ، فهو قانِطٌ، أي: يَئِسَ، وضِدُّه: الرَّجاءُ والطَّمَعُ[2]. والمرادُ بالقُنوط في الآيةِ: اليَأسُ الشَّديدُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحقُّ هو الأمرُ الثّابتُ، ولا عجَبَ، فالله لا يُبشِّرُ إلّا بالحقِّ

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ: بشَّرْناك بولَدٍ قد قضى اللهُ أنَّه كائنٌ بلا شَكٍّ، لأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنتم بالخصوصِ - يا أهلَ هذا البيتِ - رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم، فلا تكُنْ - يا إبراهيمُ - منَ اليائسينَ مِن فَضلِ اللهِ، الذين يَستبْعِدونَ وُجودَ الخيرِ، ولكِنْ أبشِرْ بالولَدِ مع الكِبَرِ، واقبَلِ البُشرى بذلك[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قنط)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 257.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/84، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/35، 36، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآيةِ:

من بيانِ السّياقِ تكثيرُ المعنى، بتقليلِ اللّفْظِ

جاءتِ الآيةُ على الفصل؛ لأنَّ جملةَ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، اقتضت سؤالًا، ودلَّت عليه بالفحوى، فنُزِّلت منزلةَ السّؤال الواقعِ لإغناء السّائلِ عنِ السّؤال، ولتكثيرِ المعنى بتقليل اللَّفظِ، أي بتركِ السُّؤال والعاطفِ، ففُصلت هذه الآيةُ عمّا قبلَها كما يفصلُ الجوابُ عنِ السّؤال، ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، فكأنَّ السّامعَ قال: فماذا قالتِ الملائكة بعدَ أن استبعدَ إبراهيمُ استبعادَ المتعجِّبِ أن يكون له غلامٌ عليمٌ، فجاءت هذه الآيةُ على طريق الجوابِ للسُّؤال المقدَّرِ.

سِرُّ تَكرارِ الفعلِ ﴿بَشَّرْنَاكَ﴾:

من بَلاغةِ السّياقِ، أنّ تَكرارَ الفعلِ، لتأسيسِ المعنى لا لِتأكيدِه

لمّا جاء الفعلُ بصورة المكرَّرِ أفادَ تأكيدَ البِشارة المذكورةِ وتحقُّقَ وقوعِها، ولمّا قالوا ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ كانت هذه البشارةُ على معنًى غيرِ المعنى الذي أفادته جملةُ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ الأولى تفيدُ تبشيرَ إبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم وهذه تفيدُ أنَّ بِشارتَهم التي بشّروه بها هي بشارةٌ بالحقِّ الذي لا مِريةَ فيه ولا شكَّ.

فائِدةُ مَجيءِ الفعلِ ﴿بَشَّرْنَاكَ﴾ ماضيًا:

البِشارةُ بالحقِّ لا تَقتضي التّعجّبَ منها، ولا اسْتِبعادَها

جاء الفعلُ بصيغة الماضي؛ للإيذان بأنّ قولَهم ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، هو بشارةٌ بالحقّ، فلا تقتضي البشارةُ بالحقِّ التّعجّبَ من أن يولدَ لكَ ولدٌ ولا استبعادَ وقوعِه، كما أنَّ المبشَّر به من عندِ الله أمرٌ لا بدّ من وقوعِه وتحقُّقِه فكيف يُتعجّب منه[1]؟!، كما أفادَ مجيءُ الفعل بصيغة الماضي، أنَّه ليس هناك بشارتان، بل هي بشارة واحدةٌ هي البشارةُ بالغلام العليمِ.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/298.

دَلالةُ الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الباء هنا للتّعْديةِ على معنى ملابسةِ البِشارة للحقِّ الذي لا لبسَ فيه، ويحتملُ أن تكونَ للآلةِ بمعنى بطريقةٍ هي حقٌّ[1].

تَـنـوّعُ معنى الباءِ، توسيعٌ في المعنى

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تحتملُ (ال) أن تكونَ جنسيَّةً، والمعنى بشّرناك بحقيقةِ الحقِّ ويدخلُ فيه البشارةُ بالغلامِ العليمِ دخولًا أوَّليًّا، وتحتملُ أن تكونَ للعهدِ العلميِّ، بمعنى بشّرناك بالحقِّ الذي هو معهودٌ عندكَ.

دَلالـــةُ (ال) بـين الجنسيَّةِ والعهديَّةِ، مفيدٌ في فهمِ السّياقِ

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تعتمدُ دلالةُ الباء التي تقدَّم ذكرُها على معنى الحقِّ، فإذا كان المرادُ من الحقِّ هو اليقينُ الذي لا لَبسَ فيه والثّابتُ المقطوعُ الذي لا محالةَ في وقوعِه وكونِه كانت الباءُ للتّعدية على معنى ملابسةِ بِشارتِهم لهذا اليقين، وإن كان المرادُ منَ الحقِّ هو الطريقةُ التي هي حقٌّ وهي قولُ اللّه تعالى وأمرُه الذي لابدَّ من وقوعِه ولا خُلفَ فيه كانت الباء للآلة، وعلى الوجهين يفيدُ الكلامُ أنَّ الولدَ لا بدَّ منه[2].

دَلالـةُ الحقِّ بين معنى اليقينِ، والطّريقةِ التي هي أمرُ الله

فائِدةُ الفاء في سياقِ النّهي عنِ القُنوطِ:

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، الفاء هنا تفيدُ التّرتيبَ والسّببيَّةَ، أي ترتّبُ النّهي عن أن يكون منَ القانطين على بشارتِهم بالحقِّ، أي بسبب تَبشيرنا لك بالحقِّ لا تكنْ منَ القانطين[3]، والمعنى بشارةُ الملائكة لإبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم والتي هي بِشارةٌ بالحقِّ تقتضي أن لا يكونَ من زمرةِ القانطين.

البِشارةُ بالحقِّ رحمةٌ منَ الله، وتجليةٌ لمعجزاتِه مع أنبيائِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.

سِرُّ التَّعْبير بقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

بَلاغةُ التَّعْبيرِ القُرآنيِّ، في اختيارِ اللَّفظِ المناسبِ للمعنى

لمّا كان تعجّبُ إبراهيمَ ﷺ منَ البشارةِ واستبعادُه لها إنّما كان لأنَّه لا يكونُ لمَن هو مثلُ حاله ولدٌ في العادة كان قولُ الملائكة ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ مُؤْذِنًا أنَّه لم يكن يشكُّ في قدرةِ الله على هذا الأمر، ولهذا لم يقولوا (فلا تكن من الممترين) مثلًا[1].

سِرُّ نهيِ إبراهيمَ عنِ القُنوط الذَّميمِ:

مَن حالُه مثلُ حالِ إبراهيم، فإنَّه يُتوقَّع منه التّعجّبُ والاستبعادُ

لمّا كان اسْتِبْعادُ إبراهيمَ لأن يكون له ولدٌ يُفْضي إلى القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ الله بَعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّ المُبَشِّرينَ بها مُرْسَلونَ إليه مِنَ الله قالوا: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا اسْتَبْعَدَ ذلك اسْتِبْعادَ المُتَعَجِّبِ مِنْ حُصولِهِ كانَ ذلك أثَرًا مِنْ آثارِ رُسوخِ الأُمورِ المُعْتادَةِ في نَفْسِهِ بِحَيْثُ لَمْ يُقْلِعْهُ مِنْها الخَبَرُ الَّذي يَعْلَمُ صِدْقَهُ فَبَقِيَ في نَفْسِهِ بَقِيَّةٌ مِنَ التَّرَدُّدِ في حُصولِ ذلك فكانت حالُهُ في الظّاهر مثلَ حال الَّذينَ يَيْأَسونَ مِنْ أمْرِ الله لقولِه نحو أقوالِهم، وفي التّعبير بأسلوب النّهي إشعارٌ بأنَّ من حالُه مثلُ حالِ سيدنا إبراهيم؛ فإنَّه يُتوقَّع منه التَّعَجُّبُ والاسْتِبْعادُ[2].

سِرُّ التَّعْبير بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

الأدبُ في الكلامِ مع رُسُلِ الله، باختيارِ اللّفظِ المُناسبِ لمقامِهم

لَمّا كانَ إبْراهِيمُ ﷺ منزّهًا عَن القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ الله جاءوا في مَوْعِظَتِهِ بِطَرِيقَةِ الأدَبِ المُناسِبِ فَنَهَوْهُ عَنْ أنْ يَكونَ مِنْ زُمْرَةِ القانِطينَ تَحْذيرًا له مِمّا يُدْخِلُهُ في تلك الزُّمْرَةِ، ولَمْ يَفْرِضوا أنْ يَكونَ هو قانِطًا لرفعة مقامِ نبوءته عَنْ ذَلِك، ولهذا عبَّرَ بـ﴿مِّنَ﴾ التّبعيضيَّة[3]، فعدلَ عن أن يقال (فلا تكن قانطًا) إلى ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، كما أنَّ في التّعبيرِ بالنّهي عنِ الكينونة أبلغَ وأكثرَ تأدُّبًا من أن يقال: (فلا تقنطْ).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/60.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

لمّا كان القنوطُ بمعنى الإياس منَ الخير[1] أفادَ النّهيُ عن أن يكونَ منَ القانطين تأكيدَ أنَّ البشارةَ بالغلام العليم هي بشارةُ خيرٍ لإبراهيمَ ﷺ، وجاء بصيغة اسمِ الفاعلِ للإشعارِ بأنَّ أقبحَ القنوطِ وأتمَّه إذا كان وصفًا ثابتًا.

البِشارةُ بالولدِ بِشارةُ خيرٍ، تفتحُ الأملَ على مِصراعَيه

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

(ال) هنا لاستغراقِ أفرادِ القانطين، بمعنى لا تكنْ مثلَ أيِّ فردٍ من أفرادِ القانطين.

النّهيُ عنِ الدّخولِ في زُمرةِ القانِطين، تحذيرٌ من سوءِ العواقبِ

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

لمّا كان التّقدير: فلا تكن منَ القانِطينَ من ذلكَ، أو فلا تكن منَ القانطين من أن يولَد لك غلامٌ عليمٌ، كان حذفُ المتعلَّق لإفادَةِ العموم، بمعنى النَّهي عن أن يكونَ لك قنوطٌ من أيِّ أثرٍ من آثارِ رحمةِ اللّه الواسعةِ، أو على معنى النّهي عنِ الاتّصاف بصفةِ القنوط، أي لا يكن لك وصفُ القُنوطِ، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلةِ وإيجازًا في الكلام بعدما دلَّت عليه قرينةُ المقامِ[2].

رَحمةُ الله عامَّةٌ واسعةٌ، فلا قُنوطَ من آثارِها

دَلالةُ النّهيِ عنِ القنوطِ في السّياقِ:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى سيِّدنا إبراهيمَ ﷺ أفاد أنَّه لا يقصدُ منَ النّهي أنَّ إبراهيمَ ﷺ قد وقع منه فعلُ القنوط، فهم ينهونَه عنه، فإنَّ القنوط غيرُ متوقَّعٍ منه ﷺ، فالنَّهْيُ عنِ الشَّيْءِ لا يَدُلُّ على تَلَبُّسِ المَنْهِيِّ عنه به ولا بِمُقارَنَتِه، فيفيدُ أنَّ النّهي غيرُ مستلزمٍ للوقوع؛ لأنَّ الأنبياء قد نُهوا عن أشياءَ قد عُصموا عنها ما لا يحتملُ أن يقعَ منهم ما نُهوا عنه؛ نحوَ قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: 60]، وقولِه:

لم يكن من إبراهيمَ ﷺ، قنوطٌ من رحمةِ ربِّه

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 1]، وذلك ممّا لا يُتوهَّمُ كونُه منهم؛ فلم يكن من إبراهيمَ ﷺ قنوطٌ من رحمةِ ربّه أصلًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُنوطُ واليأسُ والخيبةُ:

اليأسُ هو انقطاعُ الطَّمع أوِ الرّجاء منَ الشَّيءِ، والقنوطُ أشدُّ مبالغةً منَ اليأس، ولا يكونُ القنوطُ إلّا باليأس منَ الخيرِ، فهو أخصُّ منَ اليأس، وأمّا الخَيبةُ فلا تكون إلا بعدَ الأمل؛ لأنَّها امتناعُ نيلِ ما أُمِّل، فأمّا اليأسُ فقد يكون قبلَ الأمل وقد يكون بعدَه[2].

القُنوطُ هو اليأسُ منَ الخيرِ، وهو أشدُّ مُبالغةً منَ اليأسِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/486، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 246.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»